إنكار، فصارت بإقدامه ونفوذه موضع نظر وتقدير، دون أن ينتهي هو إلى أرسطوطالية خالصة، ولما اشتدت الحملة على القديس توما بسبب أرسطوطاليته، قصد إلى باريس من كولونيا، على بعد الشقة وتقدم السن، ليدافع عن تلميذه العظيم، دون أن يكون هو توماويًّا، جمع المواد وبذل في ذلك جهدًا هائلًا، فجاء توما فتمثل هذه المواد وميَّز بين قيمتها ومراميها المختلفة بعقله اللاتيني النيِّر الواضح، فأقام مذهبًا هو آية من آيات العقل.

توما الاكوينى

ولد توما الاكوينى فى أواخر سنة ١٢٢٤ أو أوائل سنة ١٢٢٥ فى مدينة Roccasecca بالقرب من مدينة نابولى، والتحق بالخدمة بالدينية فى سنة ١٢٣٠ ثم درس فى الجامعة فى سنة ١٢٣٩ فى إيطاليا . والتحق بطريقة الدومينيكان سنة ١٢٤٤ . وفى سنة ١٢٤٨ التحق بجامعة باريس — حيث تلقى دروسه على يد ألبير الكبير ، ثم حصل على إجازة اللاهوت سنة ١٢٥٦ . وبعد الخصومة التى أثيرت حول السماح للرهبان بالتدريس فى جامعة باريس — وهى الخصومة التى أشرنا إليها عند كلامنا عن بونافنتورا — نقول إنه بعد هذه الخصومة سمح لتوما بحمل إجازة التدريس : ولكنه عاد بعد ذلك إلى إيطاليا سنة ١٢٥٩ واستمر يدرس فى جامعاتها : فى روما ، وفتربو، وأرفيتو حتى توفى سنة ١٢٧٦.

وأهم مؤلفات توما فى عهد الشباب وأشهرها الشرح على كتاب «الأقوال»، ثم كتاب « الوجود والماهية » De Ente et Essentia . ولكن مؤلفاته الرئيسية تنقسم إلى ثلاثة أنواع : الشروح ، والخلاصات ، والمسائل . أما « الشروح » فأشهرها الشروح على مؤلفات أرسطو بأكملها ، وفيها نجد توما شاعراً بطريقه ، يعرف إلى أين يذهب ، وما الغرض من تفسيره . وهنا يلاحظ — أو هذا ما يقوله جلسون — أن من الواجب أن نحتاط ونحن نقدر هذه التفاسير ، ذلك أنه يجب أن لا نظن أن توما فى تفسيره للنص بحسب هواه ، لم يكن شاعراً بأنه يفعل ذلك قصداً ، وإنما الواقع أنه فعل ذلك عن عمد ،

ومن أجل تحقيق غرض رئيسى وهو تكييف فلسفة أرسطو لكى تتفق والعقيدة المسيحية . كما يجب أن يلاحظ أيضا أننا إذا رأيناه يفسر أرسطو تفسيراً مخالفاً لحقيقة النص ، فليس معنى ذلك أنه قد أخطأ فهم نص أرسطو ، وإنما الواقع أنه قد فعل ذلك متعمداً وتحقيقاً لغرضٍ فى نفسه . وهذه الشروح تكاد أن تعبر عن المذهب التوماوى الفلسفى الصرف ، حتى إن بعضاً من الكتاب الذين دعوا إلى إقامة الفلسفة المدرسة الجديدة ، قالوا إن الواجب أن يُبحث عن هذه الفلسفة لا فى الخلاصات اللاهوتية التى كتبها توما ، بل فى شروحه على كتب أرسطو .

وأما شروحه على كتاب «الأقوال» فهى شروح قد كتبها فى دور متقدم، مما يدل على أنه لم يكن بعدُ قد عرف مذهبه الحقيقى ؛ ولكنها شروح تبين لنا كيفية تكوين فكر توما ، وفيها نرى أنه لايزال متأثراً بالتقاليد الأغسطينية . إذ لم يكن توما أرسطاليا صرفاً فى كل شىء ، بل فيما يتصل بصلة الله بالكون وبالغاية النهائية لكل الأشياء تدخل العنصر الأغسطينى الأفلاطونى ، فأثر فيه إلى حد كبير .

والقسم الثانى من مؤلفات توما هو أهم الأقسام ، ونعنى به «الخلاصات» Sommes . وله خلاصتان رئيسيتان: الخلاصة اللاهوتية Summa theologiae وفيها يعرض بكل وضوح العقيدة الدينية مؤيدة بالبراهين العقلية . إلا أنه فى هذه «الخلاصة اللاهوتية» لم يعرض للفلسفة الصرفة إلا باعتبارها ملحقة بالعقيدة الدينية . وأهم ما فى هذه الخلاصة الكتابان الأول والثانى المتعلقان بالله والإنسان . ولكن هذه «الخلاصة اللاهوتية» هى على كل حال أحسن مقدِّمة يستطيع الإنسان أن يبدأ منها الدخول فى فلسفة توما . والخلاصة الأخرى هى : « ضد الكفار »

أو الوثنيين Summa contra gentiles وفى هذه الخلاصة كان توما أقرب إلى الناحية الفلسفية لأنه عنى بعرض المذاهب الفلسفية والمبادىء الأساسية فى الفلسفة بكل فروعها عرضاً منطقياً عقليا صرفاً ، ومن هنا عنى عناية كبيرة بحشد البراهين المنطقية ، وسردها بطريقة مفصلة ودعمها بكل الأسس العقلية التى تخضع لها . ومع ذلك لا نستطيع أن نجد فى هذه الخلاصة نفسها ما يمكن أن يسمّى عرضاً عاماً لمذهب فلسفى متصل الأجزاء .

والنوع الثالث من كتب توما أقل أهمية من النوعين السابقين ، وهو « المسائل » Quaestiones وفيها بعرض لمسائل جزئية. ويدخل فى هذا الباب أيضاً ما يسمونه فى العصور الوسطى باسم Quodlibeta وهذا نوع من العرض للمسائل بطريقة عامة .

١ — العقل والنقل :

يبدأ توما بحثه الفلسفى ببيان الصلة بين العقل وبين النقل فيبدأ أولا بتحديد موضوع الفلسفة العامة أو الميتافيزيقا ، أى الحكمة — وكله بمعنى واحد — ، فنطلق عليها اسم الحكمة ولنبحث فى موضوعها والغاية منها . أما موضوع الحكمة فهو ترتيب الأشياء من أجل سياستها سياسة صالحة ؛ فيجب أولا أن يرتب الإنسان الأشياء بعضها بالنسبة لبعض حتى تبدو المبادىء أولا وبجلاء ويليها فى المرتبة ما هو تابع لها . وهذا يهيىء للإنسان القدرة على الهيمنة هيمنة صالحة على الأشياء . فمثلا علم الطب فى صلته بعلم « الأقرباذين » Pharmacopia نجد أن علم الأقرباذين هو وسيلة يحقق بها علم الطب مقصوده ، وبالتالى فإن علم الطب هو الذى يحكم على الأقرباذين . فمن هنا يتبيّن أن العلوم تترتب فيما بينها وبين

بعض حَسَبَ الأهم ، حتى نصل إلى أعلى درجة . ولكن كل حكمة فى كل باب من العلم هى حكمة جزئية لأنها تعنى بناحية خاصة من نواحى الكون . فلنبحث عن حكمة أخرى تشمل الكون كله ، ويكون موضوعها هذا الوجود كله فنجد أن هذه الحكمة العامة هى التى تبحث فى الله من حيث تترتب الأشياء بالنسبة إليه ، ومن حيث كونه خالقاً لها . ولما كان الله هو العلة الأولى وعلة العلل ، فيمكن أن يكون تعريف الحكمة هو تعريف أرسطو لما بعد الطبيعة أو الميتافيزيقى أى الفلسفة الأولى وهو أنها عِلْمُ العِلل الأولى أو المبادىء الأولى، وهى كلها ترجع إلى علة واحدة هى الله . ثم إذا نظرنا بعد ذلك فى ماهية هذه العلة الأولى وجدنا أننا سننتهى إلى القول بأن الله عقل ، وموضوع العقل ما هو معقول ، وما هو معقول هو الحكمة . فكأنه إذا كان موضوع الحكمة هو الله ، فموضوعها فى الواقع هو الحقيقة . إلا أن الحقيقة يمكن أن ينظر إليها بوصفها الغاية . فمن هنا نجد أن الحقيقة ، باعتبارها هى الغاية من الكون ، هى أيضاً موضوع الحكمة .

فلننظر بعد هذا فى الطرق المؤدية إلى تحصيل هذه الحكمة . فنجد أولا أن لدينا العقل. فالعقل يبدو أولاً وقبل كل شىء أنه المؤدى إلى تحقيق هذه الغاية، أعنى موضوع الحكمة . والعقل نظريا هو كذلك . ولكن إذا نظرنا فى الواقع إلى ما فعله العقل وحده ، وجدنا فى الحال أن العقل بمفرده لا يستطيع أن يبلغ كل الحقائق الدينية ، وإنما يجب أن يأتى بعد ذلك الوحى أو النقل ، فيضاف إلى العقل ، من أجل الحقائق الأخرى التى هى خارجة عن نطاق العقل . وللبرهنة على هذا من الناحية الفلسفية يجب أن نلجأ إلى نظرية المعرفة عند أرسطو . فأرسطو يقول إن تحديد صفات الشىء وكل ما يلزم عنه إنما يأتى تبعاً لتحديدنا لماهيته : فبالقدر الذى نعرف به ما هية الشىء ، بهذا القدر تكون معرفتنا لخواصّ هذا الشىء وصفته التى تلزم عنه . وموضوع الحكمة كما رأينا

هو الله ، والله روح صرف ، بينما العقل الإنسانى مركب من هيولى ومن صورة وهو بالتالى لايستطيع أن يدرك الأشياء إلا ابتداء من المحسوس . وكل معرفة كما هو واضح فى مذهب أرسطو الحقيقى لابد أن يكون مصدرها الحس . لكن يلاحظ أن الحسّ لايستطيع أن يدرك ماهية المعقول الصرف ، إنما هو فقط يستطيع أن يقول بوجوده ، فيرتفع الإنسان بواسطة الحس من أثر المعقول إلى إثبات وجود هذا المعقول . ولكنه لايستطيع عن طريق الحسّ بمفرده أن يصل إلى ماهية المعقول ، وتبعاً لهذا يجب علينا أن نجعل للعقل ميداناً خاصاً مُحدَّداً لايستطيع أن يعلو عليه ، لأن طبيعته ، الخاصة وهى أنه ركب من هيولى وصورة تحول دون أن يبلغ هذه المرتبة ، ويجب علينا بعد ذلك أن نهيب بالوحى أو النقل من أجل أن يكمل هذا النقص ويتم مابدأه العقل ، علينا إذن أن نحدد الميدان الحقيقى للعقل ، والميدان الحقيقى للنقل . فيلاحظ :

أولا : أنه . نظرياً en drolt ، العقل لايختلط موضوعه بموضوع النقل ، وعلى حد تعبير توما ، الحقيقة الواحدة لاتقبل مصدرين للمعرفة : العقل والنقل . وسننتهى تبعاً لهذا القول النظرى إلى القول بأن العقل قادر على إدراك كل شىء ، ولكن فى الواقع وعملياً سنجد العكس منذ ذلك . ونظراً لما نراه من أن العقل وحده لايستطيع أن يستقل بموضوعه ، فإنه لابد أن يأتى النقل . ولا ضير على العقل من هذا . لاضير على العقل أولا لأنه يلاحظ من اختلاف المذاهب أن العقل وحده لايكفى لبلوغ الحقيقة الصرفة . كما يلاحظ أن حقيقة البراهين ومبناها المنطقى لايدركه كل الناس ، بل يحتاج ذلك إلى استعداد خاص ومران معين يهيأ له المرء من أجل إدراك الحقيقة المنطقية فى البراهين . ولهذا كان لابد أن ينضاف إلى العقل النقلُ من أجل هذا التحقيق لكل مضمون الحقائق الخاصة بالإنسان .

ومن ناحية أخرى نرى أن النقل قد اختص لنفسه أشياء معينة ، فى

داخلها وحدها يجب أن يجول . ولاضير عليه بعد ذلك أن يأتى العقل فيحدد مضمونه بوضوح ، لأن الإيمان أقل أنواع المعرفة درجةً فى الوضوح ، وذلك لأنه فى حالة المعرفة الإيمانية لايدرك الإنسان بوضوح : المبنى العقلى للحقيقة الإيمانية . وعلى العكس من ذلك فى حالة اليقين العقلى نجـد التفكير واضحاً يقينياً ومشعوراً به .

وعن هذا الطريق حاول توما أن يوفق بين العقل والنقل . فإذا تعمقنا المسألة بطريقة أفضل قلنا إنه من الناحية الإيمانية يلاحظ أنه إذا كانت المعجزات والنبوات تؤدى إلى الحقيقة ، والحقيقة واحدة ، فبالتالى لا يمكن العقل أن يتعارض مع النقل . ومن ناحية أخرى يلاحظ أن المعرفة الفلسفية هى التى تقوم على المبادىء العقلية ، وهذه المبادىء العقلية توضع فى العقل الإنسانى عن طريق الله . ذلك لأن كل من يعلِّم لابد أن يكون حاصلا على العلم الذى يلقنه لتلميذه ، فإذا كان الله هو الذى يعلم الإنسان ، من حيث أن هذه المبادىء فطرية فيه ، فلابد أن يكون الله حاصلا على هذه المبادىء ، وإذا كان الله حاصلاً عليها فهو إذن المصدر سواء بالنسبة إلى العقل وبالنسبة إلى النقل . والعقل والنقل يتحدان معاً فى الحـكمة الإلهية .

وبعد هذا التوفيق بين العقل والنقل يبدأ توما بالفصل بين الاثنين فيقول إن للعقل ميداناً ، وللنقل ميداناً آخر ، وهما مختلفان سواء من ناحية المنهج ومن ناحية الترتيب . فمن ناحية المنهج يشتق العقل مبادئه مما غرس فيه من مبادئ عقلية ولا يهيب إلا بـلطان العقل . وعلى العكس من نجد النقل يلجأ إلى طرق ثلاثة : أولا ما أتى به الوحى مسجّلاً فى الـكتب المقدسة ؛ وثانياً إلى كل مايتفق وكمال الله ؛ وثالثاً إلى كل مايتفق مع قدرة الله المطلقة . كذلك يختلف العقل عن النقل من حيث الترتيب : فالعقل يبدأ دائماً من المحسوس لـكى يرتفع منه

إلى المعقول ، وبالعكس يبدأ النقل من الله كى يصل إلى المحسوس ، وطريقه هو الطريق الأوفق لأن الله يدرك الأشياء بإدراكه لذاته .

وهكذا نستطيع أن نحدد موقف توما فيما يتصل بهذه المشكلة على هذا النحو بأن نقول إنه لايخلط بين العقل والنقل ، ولايميز بينهما ، ولا يفصل بينهما فصلا تاماً .

براهين وجود الله :

براهين وجود الله عند توما براهين ضرورية منطقية يجب أن يعنى الفيلسوف اللاهوتى بعرضها بالتفصيل ، لأن وجود الله ليس واضحاً بذاته . ولهذا يبدأ توما بأن ينقض أقوال أولئك الذين يزعمون أن وجود الله واضح بذاته . فيجد أولا أن هناك طائفة ، على رأسها يوحنا الدمشقى تقول بأن وجود الله فطرى فى الإنسان . ولكن هذا القول باطل ، ذلك لأن من الناس من لايقولون بوجود الله ، وثانياً لأن الموجود بالفطرة فى نفس الإنسان ليس وجود الله بل المبادىء التقليدية التى يستطيع أن ينتقل منها إلى إثبات وجود الله . فليس الوجود إذن هو الفطرى ، وإنما المبادىء العقلية التى يستدل بها على وجوده .

وثانياً : يوجد من يقولون بان وجود الله واضح بنفسه ، لأن كل إنسان منا يسعى نحو السعادة ، والله هو الغاية التى بها تتحقق السعادة ، فكلٌ منا إذن يسعى نحو الله ويقول بوجوده ضرورةً .

ويرد توما على هذه الحجة كذلك بأن يقول : أجل إننا نسعى نحو الخير أو السعادة ، ولكن الناس مختلفون فى معرفة حقيقة هذه السعادة : فمنهم من يظنها الثروة ، ومنهم من يظنها اللذات ، ومنهم من يظنها الله . فليس بصحيح

إذن أن مجرد وجود الرغبة فى السعادة يؤذن بضرورة الإيمان بوجود الله .

ثالثاً : وهناك آخرون يثبتون وجود الله ، على أساس أنه من مجرد النظر فى فكرة الله لابد من القول بأن الوجود هو والماهية شىء واحد فيما يتصل بالله ، لأن الله هو الكائن الذى لا يمكن أن يتصور أكمل منه ، والوجود فى الذهن والخارج معاً أكمل من الوجود فى الذهن فقط . فالكائن الذى لا يمكن أن يتصور أكمل منه لابد أن يوجد فى الخارج والذهن معاً . فيرد توما على هذه الحجة بأن يقول بما قال به جونيلون من أنه ليس بصحيح أن مجرد الوجود فى الذهن معناه الوجود فى الخارج ، وإلا لاستطعنا باستمرار أن نتصور كائناً يعلو كلما وجدنا كمالا جديداً نستطيع أن نضيفه إليه . ومن ناحية أخرى يلاحظ أنه ليس بصحيح كذلك أن كل إنسان فكرته عن الله هى أنه الكائن الذى لا يمكن أن يُتصور أكمل منه ، فإننا نجد من بين هؤلاء الذين يذكر لنا يوحنا الدمشقى آراءهم عن الله من يقولون إن الله هو العالم ، بل إننا لا نجد واحداً ذكر يوحنا الدمشقى تصوره لله — بعرف الله هذا التعريف الذى قال به القديس أنسلم والأوغسطينيون . فمن مجرد تصور الله لا ينتج مباشرةً القول بأنه بالنسبة إلى الله الماهية والوجود شىء واحد .

ورابعاً : هناك فريق رابع يبرهن على أن وجود الله واضح بذاته عن طريق فكرة الحقيقة ، فيقولون إنه مهما قلنا من قول فإننا فى أى قول نقوله ، نقول بوجود الحقيقة . فإذا قلنا إن الحقيقة موجودة فمعنى هذا أننا نقول : « من الحق أن الحقيقة موجودة » . وإذا أنكرنا أيضاً وجود الحقيقة فإننا نقول : « من الحق أن الحقيقة ليست موجودة » وأيًّا ما كان فإننا نقول دائما « من الحق » . ومجرد قولنا « من الحق » يدل على وجود الحقيقة . فالحقيقة إذن موجودة . والله هو

الحقيقة، إذن الله موجود ،وموجود وجوداً واضحاً بذاته لأن وجود الحقيقة واضح بذاته بالنسبة إلى الإنسان ، والله هو الحقيقة ، لأن الله يقول ـ كما ورد فى إنجيل يوحنا ـ : أنا الطريق والحقيقة والحياة ego sum via veritas et vita ولكن توما يرد على هذا القول بأنه إذا كان الأصل صحيحاً فليست المقدمة الصغرى صحيحة من الناحية العقلية . ذلك أن قولنا أن الله هو الحقيقة : هذا قول ليس مأخوذاً من العقل بل هو مأخوذ من الوحى ، فأوراق اعتماده مأخوذة من ميدان خارج نطاق المعقول ، وإذن فليس القول بوجود الله واضحاً بذاته عقليا إذن .

ومن هذا كله يستنتج توما أن القول بوجود الله ليس واضحاً بذاته ، بل كما يذكر موسى بن ميمون : إن هناك من الأسباب ما يجعل هذا القول عسيراً فى النظر ، إذ يلاحظ أولا أن من الناس من لا يستطيعون بعقولهم أن يصلوا إلى إدراك الله ، وثانياً يلاحظ ـ وعلى أساس نظرية المعرفة عند أرسطو ـ أن كل معرفة تنشأ من الحس ، فلابد أن تكون نقطة الابتداء دائماً هى الحس، والحس لا يستطيع أن يصل إلى إدراك المعقول إدراكا تاماً ، والله معقول صرف . وكل خاصية تضاف إلى شىء فيجب أن تكون تابعة فى درجة تحديدها لدرجة معرفتنا بالماهية ، وماهية الله فوق كل إدراك لأنها معقولة صرفة، بينما إدراكنا مشارك المحسوس والمعقول ، فلن نستطيع إذن أن ندرك ماهية الله الإدراك السكامل وبالتالى لا يستطيع الحس أن يصل إلى إدراك ماهية الله تماماً ، وإنما يجب علينا الارتفاع من المحسوس إلى المعقول من أجل بيان وجوده ، لا من أجل بيان ماهيته .

وهكذا نجد توما يقول من ناحية إن وجود الله ليس واضحاً بذاته ، ومن ناحية أخرى إننا يجب أن نبدأ من المحسوس ـ لأن كل معرفة تنشأ من المحسوس ،